نبذة تاريخية
في الحرف الدّمشقيّة

تأليف

الياس عبده قدسي

قدّمها لمؤتمر المستشرقين
المنعقد في لايدن بهولاندة 1883

توطئة

أثناء بحثي عن بعض المصادر التاريخية المتعلقة بمدينة دمشق ، عثرتُ بالمصادفة على رسالة صغيرة هامَّة تدخل في نطاق التاريخ الحضاري لدمشق ، عنوانها : «نُبذة تاريخيَّة في الحرَفً الدِّمشقيَّة» ؛ فتبيَّنتُ على الأثر نُدْرةَ هذه الرِّسالة ، إذ أنَّها مطبوعة في لايدن بهولاندة عام 1885 ، فصار من المُتعذِّر حقّاً العثورُ عليها لمراجعتها والاستفادة منها ، وقد لاحظت أنَّ نادراً ما أشار إليها أحدُ الباحثين المعاصرين ، واختفى اسمُها تقريباً من قوائم المصادر والمراجع التاريخيَّة المتخصِّصة .

ولذا رأيت من المفيد إعادةُ نشر هذه الرِّسالة من جديد مع شيء من التحقيق تعميماً لفائدتها ، وتيسيراً في وضعها بين أيدي الباحثين المهتمِّين بتاريخ مدينة دمشق وما يتعلَّق به .

لا ريب أنَّ البحث في موضوع الحرَف الدِّمشقيَّة أمر هامٌّ للغاية ؛ إذ يمكن التعرُّفُ من خلاله على سمَة واضحة من سمات الحضارة التي كان ينطبعُ بها مجتمعنا الدِّمشقيُّ قبل قرونٍ مضت . ومن المعلوم أنَّ بحث تاريخ الصِّناعات الحرفيَّة لمجتمع مدينة ما كفيلٌ بإعطاء صورة صادقة عن ركن أساسيٍّ من أركان الحياة الاجتماعيَّة السَّائدة فيها لعصر من العصور ، ذلك لأنَّ الحرَفَ ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بحياة عامَّة الناس ، طالما أنَّها تشغلُ نصف الاهتمام اليوميِّ لكلِّ فردٍ منهم دونما استثناء .

ويعكس تطوُّر الحرَف الصِّناعيَّة والفنِّيَّة مدى رُقيِّ الثَّقافة الاجتماعيَّة ، ومدى رُسوخ عُنصرِ المدنيَّة الفعَّال في حياة عامَّة النَّاس .

تبرزُ مكانةُ هذه الرِّسالة التي بين أيدينا في أنَّها تُدوِّنُ لنا معلومات واقعيَّةً عن نمط الإدارة الحرَفيَّة في مدينة دمشق [1] قُبيل التَّحديث الذي طرأ على مجتمعنا منذ بدايات القرن العشرين ، والذي رافقه قيام تحوُّل جذريٍّ في جميع ظروف حياتنا ، انعكس منه ما انعكس على الحرَف الدِّمشقيَّة فاندثر بعضُها لقلَّة الحاجة إليه [2] .

وظهر منها ما هو جديد طبقاً لحاجات المدنيَّة المعاصرة . أضفْ إلى ذلك تحوَّل النِّظام الحرَفي من يدويٍّ إلى آليٍّ . ومن فرديٍّ إلى اقتصاديٍّ عامٍّ . وانتقال إدارته وتنظيمه تدريجياً إلى أيدي الدَّولة بدلاً من إدارته الشَّعبيَّة المستقلَّة .

ونظراً إلى ما سبق تتبيَّن ضرورة دراسة نُظُم إدارة الحرَف ما قبل التَّحديث ؛ لفهم علاقات مجتمعنا الاقتصادية التي رسمت - وترسم دائماً - دوراً هامّاً في تسيير مجريات أموره العامَّة . ولكم يبدو لنا يسر هذه الدِّراسات إذا ما علمنا أنَّ مجتمعنا يومذاك كان يستوحي موازين نظمه الاقتصاديَّة من تراثه وفكره الخاصِّ ، لا من الأفكار والنُّظُم المجلوبة من الغرب . وهذا يهني أنَّ الدِّراسةَ تجيءُ عندئذٍ على غايةٍ من الصَّفاء والانسجام ؛ لانعدام المداخلات الغربيَّة المتباينة فيها .

---

(1) وذلك في القرن التاسعَ عشرَ ، بأواخر عهد الدَّولة العثمانيَّة .

(2) تجد بعض هذه الحرف البائدة في «قاموس الصِّناعات الشَّاميَّة» للقاسمي .

لقد كانت ممارسة الحرف اليدويَّة صفةً لازمةً لجميع أفراد المجتمع الدِّمشقيِّ فيما مضى ، فقلَّ أن تجد شخصاً - مهما كانت مكانته الاجتماعيَّة - لا يُتقن مهنةً يدويَّةً ما . ويذكر الشَّيخُ نجم الدِّين الغَزِّيُّ في كتابه «الكواكب السَّائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة» [1] أعلاماً كثيرين بدمشق كانوا من أكابر عصرهم وعلمائه . ومع ذلك لا يستنكفون أن يعيشوا من عمل أيديهم في مهن شتَّى ، كنسخ المصاحف ، والوراقة ، وصناعة الحبر ، ونسج المضرَّبات وغيرها ، غير معتبرين أنَّ من شأن ذلك الحط من مكانتهم وقدرهم [2] .

أما بعد ذلك فقد طغت الآلة ، وصارت الحرف والصِّناعات مختصّةً بأصحابها فقط ، وأضحى تأمين حاجات المجتمع منها منوطاً بفئة قليلة ؛ لظهور إنتاج الجملةالمكثَّف ، وعزف الباقون عنها منصرفين إلى المهن الأخرى الإداريَّة والعلميَّة .

إنَّ الباحثَ في مجال تاريخ الحرف الدِّمشقيَّة لو رام الاستقاء من المصادر المختصَّة لن يجد سوى بعض البحوث القليلة ، أذكر منها :

- «كتاب في الحسبة» [3] ، ليوسف بن عبد الهادي (توفي عام 909 هـ) :
وهو رسالةٌ موجزةٌ ، ذكر فيها صاحبها قواعد الحسبة على صنائع دمشق ، ويُستفاد من تعداده لأسماء هذه الصَّنائع التي كانت بدمشق في عصره (أواخر عهد المماليك) .

- «نزهة الرِّفاق عن شرح حال الأسواق» [5] ، لنفس المؤلِّف :
رسالةٌ موجزةٌ ، فيها أسماء بعض أسواق دمشق التي كانت في عصر الكاتب ، وذكر ما يُصنع ويباع بها .

---

(1) صدر بثلاثة أجزاء في منشورات الجامعة الأميركيَّة في بيروت ، 1945 - 1959 .
(2) ناهيك أنَّ سلاطين بني عثمان أنفسهم ماكان واحدهم يسعُهُ جهلُ صنعة يدويَّة ما ، فكان فيهم الخطَّاط والنَّجَّار . . وغير ذلك .
(3) سننشر هاتين الرسالتين ضمن كتابنا : «دمشق في العهد المملوكي» - الجزء الأول .

- «قاموس الصِّناعات الشَّاميَّة» (بدائع الغرَف في الصِّناعات والحِرَف) [1]، لمحمد سعيد القاسمي وجمال الدِّين القاسمي وخَليل العظم .

وهو أهمُّ مصدر يعدد حرف دمشق وبيان أوضاعها في القرن التاسع عشر ، وهو بالإجمال أحسن ما كُتب في موضوعه .

- دراسات وتعقيبات على قاموس الصِّناعات ، منها :

«المظاهر الاجتماعيَّة في قاموس الصِّناعات الشَّاميَّة» ، لظافر القاسمي [2] .

«أضواء على قاموس الصِّناعات الشَّاميَّة» ، لبدر الدين السِّباعي [3] .

- «فنون وصناعات دمشقيَّة» [4]، لمنير كيَّال :

وهو كتابٌ حديث ، يتناول الموضوع من ناحية فنيَّة ، مع تقديمٍ موجَزٍ لبعض الخلفيات التَّاريخيَّة .

فعسى أن يكون في «النُّبذة التَّاريخيَّة» التي نقدِّمها اليوم سَدّ للنَّقص ، وهي بتفرُّد موضوعها تكمِّل قاموس الصِّناعات الشَّاميَّة الذي اكتفى بسرد أسماء الحرَف بدمشق وبيان معانيها وأحوالها ، بينما تُعنى هذه النُّبذةُ بشرخ النِّظام الإداريِّ الحِرَفيِّ الذي كانت تنتظم فيه تلك الحرف سابقاً ، في القرن التاسع عشر .

وهي - فوق ذلك - تكشف أعرافاً وتقاليدَ ارتبطت بالحياة الحرفيَّة في دمشق ردحاً طويلاً من الزَّمن ، ثمَّ اختفت مع تعاقب السِّنين حتى صارت في أيَّامنا نسياً منسيّاً .

* * * * *

(1) صدر بجزئين في دمشق عام 1960 .

(2) مقالة في كتاب «أبحاث المؤتمر الدَّولي الثَّاني لتاريخ بلاد الشَّام» ، المنعقد بدمشق 1978 ، 1 : 156 - 175 . وأعيد نشرها في مجلَّة التراث العربي ، 1 : 126 - 139 .

(3) كتاب نشرته دار الجماهير بدمشق 1977 .

(4) نُشِرَ بدمشق ، وزارة الثقافة 1962 .

ترجمة المؤلف[1]

إلياس عبده قدسي

1850 - 1926 م

ترجمة المؤلف [1]

إلياس عبده قدسي

1850 – 1926 م

ولد بدمشق عام 1850 م ، وأخذ مبادئ العلوم في المدرسة البطريركيَّة بدمشق ؛ فتلقَّى فيها أُصل العربيَّة واليونانيَّة ، ثمَّ وافى مدرسةَ عينطورا في لبنان (وكانت من أشهر المدارس الثَّانويَّة الخاصَّة) فأتقن فيها الفرنسيَّة . وبعد ذلك غادر الشَّامَ إلى أثينة ، فدرس في جامعتها ستَّ سنين ، ونال منها شهادة اللِّيسانس في اللُّغة اليونانيَّة القديمة والحديثة وفي الفلسفة . وتعلَّم مبادئ الإيطاليَّة والإنكليزيَّة والتركيَّة .

عاد سنة 1872 إلى دمشق فتولَّى نيابةَ شؤون القنصليَّات اليونانيَّة والبرتغاليَّة والبلجيكيَّة والهولانديَّة ، وظلَّ على ذلك إلى سنة 1888 م ، فوُلِّيَ قُنصُلاً لليونان ثمَّ وكيلاً للنِّمسا والمجر ، وقُنصُلاً للبرتغال إلى قُبيل وفاته [2] .

وقد تعيَّن عضواً في المجمع العلمي بدمشق (مجمع اللغة العربيَّة الآن) ، وقام بتأسيس (الجمعيَّة العلميَّة التاريخيَّة) بدمشق عام 1878 (زالت) . وكان قد نُدبَ لإدارة مدارس الرُّوم بدمشق ، فأنشأها إنشاءً جديداً ، وظلَّ يديرها ويعلِّمُ فيها أحياناً مدة 33 سنةً .

---

(1) هذه الترجمة مُستقاة من : معجم المطبوعات لسركيس ، ص 1496 – 1497 ، مجلة المجمع العلمي ، مجلد 6 (عام 1926) ، ص 370 – 372 ؛ الأعلام للزركلي ، 1 : 349 ؛ معجم المؤلفين لكحَّالة ، 2 : 315 .

(2) ومراراً ما نجد اسمه في السجل الرسمي السنوي «سالنامه ولايت سوريه» بالتركية : يونان قونسلوس مأمورى موسيو الياس قدسى . كما في العدد 24 لسنة 1891 ، ص 131 .

كان القدسي لغويّاً وأديباً وشاعراً وباحثاً بالتّاريخ ، وكان المرجعَ الأوّلَ بدمشق في اللهجة العاميَّة (على قول العلاّمة محمد كرد علي) [1] . وله نحو 20 قصّةً تمثيليّةً طُبِعَ بعضُها ، ورسالة في مسك الدَّفاتر (طبعت) ، ومقالة في الحرف الدِّمشقيَّة (وهي موضوع نشرتنا) . وقد جمع طائفةً من الأمثال الدَّارجة بالعربيَّة وقابلَها بما يُماثلُها في اللُّغات الأوربيَّة ، بلغت نحو 3000 مثل (لم تطبع) .

ومن أبحاثه : مقابلة بين اللغة اليونانيَّة القديمة واللغة العربيَّة ، والبرهان على اشتراك اللُّغتين في بعض الاشتقاقات (نشر بعضُهُ في مجلَّة مجمع دمشق) . وكان له ولعٌ بالقراديَّات ، أي الشِّعر العاميِّ ، فنظم فيه بعض النَّوادر والوقائع ، ومنها ما نقله عن لافونتين (La fontaine) القصصيِّ الفرنسيِّ المشهور ، ومنها ما وضعه وضعاً ، ويدخل ما نظمَهُ في مجلَّدين لم يُطبَعا . وممَّا حذا به حذوَ لافونتين : «نوادر وفكاهات من أحاديث الحيوانات» ، باللغة العربيَّة الدَّارجة (طبع بدمشق 1912) .

وتوفي القدسي بدمشق عام 1926 م .

* * * * *

(1) نتمنّى اليوم لو كان القدسي جمع في موضوع اللهجة العاميّة الدمشقية مصنّفاً وافياً ، على غرار ما جمعه علاّمة حلب خير الدين الأسدي في موسوعته المقارنة عن لهجة حلب وتراثها اللفظي . فهذا الأمر لم يُعن به إلى الآن أحد بما فيه الكفاية ، ولا شك أن دراسة أصول اللهجة العاميّة من ألفاظ وكنايات وأمثال ، أمر يفيد البحث في أصول التراث الشعبي أيما إفادة . وكنا جمعنا من هذه الألفاظ والكنايات الكثير مما يُعدّ بالآلاف ، ورددناها إلى أصولها من الفصيح واللغات الأخرى ، التركية والسريانية والفارسية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية ، مع دراسة لغوية مقارنة عن اللهجة العاميّة بدمشق . وسنعمل على نشرها يوماً .

مقدّمة الناشر

لم يصلني الموضوع الذي بين أيديكم إلاَّ بعد انقضاء هذا المؤتمر ، وكان قد تخرَّق تماماً بسبب أجهزة التطهير البريديَّة لدرجة أنَّني في بادئ الأمر قطعت الرَّجاءَ نهائيّاً من إمكانيَّة إعادة إنشاء النصِّ من جديد . ولحسن الحظِّ كانت مادَّته مألوفةً لي تماماً ، وبالإضافة إلى ذلك كنتُ حريصاً على أن أُبيِّنَ للشَّرقيِّين بهذه النَّشرة مدى رغبتنا في رؤيتهم مهتمِّين قليلاً بالعلم لأجل العلم المجرَّد . فلربما كانت هذه المرَّةَ الأولى التي يقوم فيها أحد العرب بتقديم عمل أمام مؤتمر المستشرقين . وقد لا يعني ذلك أنَّ هذا العمل مكتملٌ تماماً ، ولكنَّ المؤلِّفَ استطاع أن يقدِّمَ فيه كثيراً من التَّفاصيل ، وهو بالدَّرجة الأولى أفلح في إعداد موضوعٍ ذي فائدةٍ وافيةٍ وأهميَّةٍ كبيرة .

إنَّ مؤلِّفنا الشَّابَّ الذي تلقَّى ثقافتَهُ في الخارج بمنتهى العناية ، قد وعدنا بتقديم الكثير إذا هو شاء بمتابعة تفرُّغه للعلم . ولقد كنتُ أعمل دائماً على نشر الفكر العلمي الأوروبي في الشَّرق ، وقد أخذتُ على نفسي العثور - في مكان ما - على تلميذ يتقيَّدُ بمتابعة نصائحي التي تلقَّيتُها بدوري عن أساتذتي في أوربا . ولعلي لم أسعَ في ذلك هباءً ، فيبدو أنَّ السَّيِّد إلياس قدسي قد وضع نفسَهُ قيد العمل بكثير من الاندفاع . وها هو الآن قد وافانا بمادَّة مشوِّقة للغاية ، جديرةٍ بأن تُقرَأ مع بالغ السُّرور .

قال المؤرِّخ الحكومي السُّويدي «گايّر» Geijer : «إنَّ تاريخ الشَّعب السُّويدي لهو تاريخ ملوكه» . كانت هذه البديهيَّة تبدو لي دوماً مشكوكاً في صحَّتها ، سواء فيما يتعلَّق بتاريخ السُّويد أو غيرها من البلدان ؛ فإنَّ تاريخ الشَّعب منسيٌّ دائماً - بشكلٍ أو بآخرَ - بما فيه من أساطيره وقوانينه الاجتماعيَّة وعاداته وخرافاته ومُعتقدَاته وكيفيَّة مواجهته لمختلف القضايَا .

إنَّه في واقع الأمر ، هناك في هـذا الجمهـور مـن الأفـراد ، بعيـداً عـن كرسيِّ الملكيَّة أو الوزارة تدور الأحداثُ الكُبرى ، أكثرَ فاعليّةً وأطولَ استدامةً بآثارها من نفوذ الإرادة الملكيَّة .

ولم يحدث سوى في الأزمنة القريبة الماضية أن بدأت هذه الطَّريقة قديمةَ العهد في كتابة التاريخ بالتخلِّي عن مكانها لأخرى مختلفة ، حيث يحتلُّ الشَّعبُ والأُمَّة والاتِّحادات والنِّقابات الحرفيَّة والأقاليم ، وحتى الأُسَرُ نفسُها تحتلُّ مكانةً بارزةً متميِّزةً .

وهذا الضَّرب من التَّاريخ (الذي أُسَمِّيه : التَّاريخ الإثنوغرافي [1] Histoire Ethnographique) أكثر إهمالاً في الشَّرق ممَّا هوَ عليه في أوربّا [2] .

جميع المستشرقين يعرفون أيَّةَ موضوعات هي التي تندرجُ حولها كلُّ التواريخ المكتوبةُ باللُّغة العربيَّة تقريباً : الخليفة – الوزير – حروبهم وملذَّاتهم – محاسنهم ومساوئهم . وكلُّ ذلك يُسجّل ضمن مشهد منمَّق بالنَّوادر التي لابدَّ منها دائماً ، مع

---

(1) الإثنوغرافيا (Ethnographia) كلمة منحوتة من جذرين باللغة اليونانيَّة هما : (Ethnos) وتعني : الشَّعب ، و(Graphia) وتعني : وصف . ومعنى الكلمة الحرفي : وصف الشُّعوب . ومعناها الاصطلاحي العلمي في الدُّول الغربيَّة : (وصف الأعراق البشريَّة) أي : من ناحية أُصولها وتطوُّرها البيولوجي . والمعنى هو ذاتُهُ في الدُّول الشَّرقيَّة ، مع فارق إضافة النَّاحيتين الاجتمَاعيَّة والثَّقافيَّة . وهو فرع من (علم الإنسان الطَّبيعي (Anthropologie) . وعلى ذلك يكون معنى التَّاريخ الإثنوغرافي : التاريخ الشَّعبي الوصفي . (إيبش)

(2) في هذا الرَّأي شيءٌ من الحقِّ ؛ إذ أنَّ مؤرِّخينا في العصور المتأخِّرة لم يُعنَوا بتأريخ حياة عامَّة الشَّعب ، بل اقتصروا على كبار الشَّخصيَّات المشهورة ، اللَّهمَّ إلاَّ ما كان عن طريق تدوين المُذكِّرات اليوميَّة التي تجد فيها شيئاً من هذا القبيل ، مثل : حوادث دمشق اليوميَّة للبديري الحلاَّق ، في القرن الثَّاني عشر للهجرة . وتعليق أحمد بن طوق ، في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر الهجريَّين . وفي الأخيرة معلومات عن المجتمع الدِّمشقي العامِّ في غاية الأهميَّة بفترة جدٍّ حَرِجة ؛ هي نهاية عصر حكم المماليك واقتراب زمن الفتوحات العثمانيَّة .
وكذلك فمن المصادر الهامَّة لدراسة حياة العامَّة في مجتمعاتنا : رحلات السُّيَّاح والأثريِّين الأوروبيِّين (في العهد العثماني خصوصاً) ، انظر مقدِّمتنا لرحلة الفارس دارقيو إلى دمشق . (إيبش)

أشعار متملّقة بعض الأحيان ، ومقبّلات أدبيّة تَنْأى غالباً عن أهميّة تُذكَرُ . وهذا بالنِّسبة لعالم أوروبيٍّ باحث يعني التقاط الشَّوائب المُبعثَرة من التَّاريخ الاجتماعيِّ للمَشارِقَة ؛ لكي تتبيَّنَ لنا معالمُ حياتهم وأعرافهم وعاداتهم وطبقاتهم الاجتماعيَّة الدُّنيا .

ليس من السَّهل كتابةُ هذا التَّاريخ الإثنوغرافيِّ للعصور الماضية ، لكنَّني مُقتنعٌ بأنَّ تحقيق ذلك يَتمُّ عن طريق استخلاصه من الشَّرق الحيِّ . وأهمُّ ما في ذلك الإسراع ؛ لأنَّه منذ بضعة عقود من السِّنين لم يعَدَ للحياة الشَّرقيَّة استقرارُها المعهود .

وللنَّجاح في تمييز ما هو قائمٌ منذ القديم ، وللإصغاء إلى صدى الماضي الغابر ينبغي للمرء قطع أيِّ اتِّصال وبين المدنيَّة الأوربيَّة ، والمعتبر في وسط المجتمع الشَّرقي ليس إلاَّ ، هذا المجتمع الذي لا زالَ مؤتمناً - ولو جزئيّاً - دونما إدراكٍ منه على بقايا حضاريَّة عريقة .

وللتوصُّل إلى نتائجَ مُرضية ، لا يكفي القيامُ برحلة في رُبوع الشَّرق ولو كانت لسنة أو اثنتين ، بل هذا يلزمُ العيشُ هناك طوالَ سنواتٍ عديدة مع تعاطي التِّجارة الخصوصيَّة والتَّعامل اليوميِّ مع كافَّة طبقات السُّكَّان .

إنَّ النُّفوذَ إلى أعماق الحياة الاجتماعيَّة والعقليَّة للشَّرقيِّين بالنِّسبة لشخص أوربيٍّ هو أمرٌ جدُّ شاقّ . وسأتجرّأ على القول بأنَّ معارفنا في أوربا عن الشَّرق ما تزالُ حتى يومنا هذا ضَحْلةً تماماً .

باستطلاع هذه الحال التي تجري عليها الأمور ، نجدُ أنَّه ليس بوسعنا سوى أن نتوجَّه إلى الشَّرقيِّين أنفسهم راجين منهم تزويدنا بالوثائق المدروسة التي تحتاج إليها ، ولكن بما أنَّ هذه الوثائقَ تُعتبرُ جديرةً بكلِّ اعتبار من جانب العلماء الأوربيِّين ، فمن الضَّروريِّ قطعاً أن يتَّبع زملاؤنا المشرقيُّون في أبحاثهم مزيداً من التَّحقيق الذي ليس بالنِّسبة لهم أمراً مألوفاً (وليس من أيِّ داعٍ هما للتَّشكيك في صحَّة مقالي) ، فإنَّ أبناء الشَّرق عموماً لم تُتح لهم فرصةُ الدِّراسة في أوربا ؛ حيثُ المرءُ معتادٌ على البحث عن أصول كلِّ الأشياء وأسباب وجودها . وأقول : أن ليس هناك في الشَّرق كثير من الأشخاص الذين لديهم الرَّغبةُ الكافيةُ في مدِّ أيديهم باتِّجاهنا ، بيد أنَّه يبقى البعضُ

القليلُ منهم سيفعلون بكلِّ ترحاب . وإلى هؤلاء في الواقع أتوجَّه بتقديم الخطاب باسم أعضاء المؤتمر الدَّولي للمستشرقين .

ونحن بكلِّ سرور نرحِّبُ بهذا النتاج البكر للسَّيِّد إلياس قدسي ، وكم نتمنَّى له أن يجد من يُحاكيه به ، وسوف نكون مستعدِّين على الدَّوام لتسهيل طبع أعمالهم دون مقابل ، إذا نحن رأينا فيها ما يستحقُّ ذلك . وأملنا أن يضع العلماء الشَّبابُ في الشَّرق أنفسَهُم قيد البحث والدّراسة ، غير مهتمِّين بسوى المواضيع التي يعرفونها حقَّ المعرفة ، وبما لم يستطع الأوربِّيُّون التعمُّقَ فيه بشكل يسير [1] .

وعلماً منِّي بأنَّ هذا العمل الحاضرَ سوف توزَّع منه مئات النُّسَخ في الشَّرق ، فقد اعتبرتُ أنَّ القصدَ من كتابة هذه الكلمات هو حَفْزُ زملائي الموجودين على السَّاحل الآخر من البحر الأبيض المتوسِّط ، على السَّير في إثر خُطى السَّيِّد إلياس قدسي . لقد استهلَّ لهم الطَّريق ، وعلى الآخرين الآن أن يحذوا حذوَهُ .

أمَّا بالنِّسبة لهذا العمل الذي أنتم بصدد قراءته فاسمحوا لي أن أُعلِّقَ عليه ببعض الكلمات :

إنَّ لدى الكاتب نظراً طيِّباً في استخدام اللُّغة المكتوبة التي يجدر بالمجتمع الرَّاقي المعاصر استعمالها . وهي على سبيل الإيضاح ، لا يحتاج معها إلى الاستعانة بالمعجم التَّقليدي ، وحبَّذا لو أنَّ الجميع يعمَدُونَ إلى هذا الأُسلوب ؛ إذا هم أرادوا فعلاً أن يكونوا نافعين لشؤون المشرقيَّات .

وبكون السَّيِّد قدسي مانحاً إيَّايَ مطلقَ الحريَّة في التصرُّف بعمله كما أشاء ، فقد عدَّلتُ فيه الكثيرَ : أساء الكاتبُ استعمال النَّحو العربيِّ على شكل لم يَرُقْ لي ، رغم أنَّني نصحتُ له – إذا هو اهتمَّ بمتابعة كتاباته – بأن يزيدَ عنايتَهُ بما يُخصِّصُهُ منها للنَّشر ؛ إذ لا يتوافر دائماً الصَّديق الذي يتكفَّلُ بتصحيح النَّصِّ وتنقيحه وتهذيبه .

---

(1) النشرة الشَّرقيَّة الوحيدة التي تزعم بكونها علميَّةً هي المجلَّةُ الشَّهريَّةُ «المقتطف» ، ولكنَّها غالباً ما تكون مملوءةً بالحشو بدلاً عن أن تكون مفيدةً لنا . (لاندبرغ)

يرقى تاريخ النّقابات الحرَفيَّة بدمشق إلى أزمنة ماضية بعيدة ، ولا زالت ممارساتها محفوظةً كما هي بما يمكن إثباتُهُ وتبيينُهُ . والمعلوماتُ التي زوَّدناً بها السَّيِّد قدسي هي – بدون شكٍّ – قيِّمةٌ جداً . عدا عن أنَّه لم يستوف بها الموضوعَ حقَّ قدرِه كما ينبغي . فكلُّ نقابة حرَفيَّة كان يجب أن تُوصَفَ على حدَة .

وأنا – بالمناسبة – آمل أنَّني تمكَّنتُ في الجزء الثَّاني (الخاصِّ بدمشق) من كتابي «الأمثال والأقوال المأثورة للشعب العربيِّ» من تقديم أكثر المعلومات تفصيلاً حول هذا الموضوع ممَّا صار بحوزتي حتى الآن ، وقد جمعتُ معظمَهُ من دمشق .

ولقد أحسن السَّيِّد قدسي تماماً بعدم تحوير لغة المخاطبات في النَّصِّ ، فالتَّعديلُ فيها غيرُ وارد إطلاقاً .

أمَّا المسألةُ التي طرحها الكاتبُ في آخر نُبذَته فتبدر لي غيرَ مُجديَة ، وتَرْكُها للمُختصِّين ليَرُدُّوا عليها أجدر وأولى .

وبشأن إنشاء النَّصِّ أخيراً ، فقد تركتُهُ إجمالاً كما استلمتُهُ ، ولم أُعدِّلْ فيه إلاَّ في المواضع التي زلَّ بها قلمُ الكاتب سهواً فأوقع أخطاءً سافرةً ، والحواشي باللغة الفرنسيَّة هي من وضعي .

كارلو لاندبرغ

* * * * *

نبذة تاريخيَّة في الحرف الدِّمشقيَّة

جمع الياس بن عبده بك قدسي قنصل دولة هولانده في دمشق

قدَّمها للمجمع
العلمي الشَّرقيِّ الملتئمِ في مدينة
ليدن
1883

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ البحثَ الذي أقدمتُ على الخوض فيه أمام حفلكُم الموقَّر هو نُبذةٌ تاريخيَّةٌ علميَّةٌ عن الصَّنائع ، أو ما يُقال له (الحرَفُ) في مدينة دمشق . والذي بعثني على ذلك هو أنَّني فُزْتُ بشرف معرفة العالَم العلاَّمة والبحر الفهَّامة الدّكتور «كارلو لاندبرغ» الأسوجي الشَّهير ؛ إذ سافرنا معاً من بيروت إلى دمشق وكان آتياً من مملكة هولانده بقصد جمع لغة العامَّة في دمشق وضواحيها .

ولمَّا علمتُ بُغيَتَهُ التي من أجلها تكلَّفَ أن يُكابدَ مشقَّات السَّفر ويحتملَ مصارفَهُ ، عرضتُ نفسي عليه أن لا يؤخِّرَ عني التَّعب في كلِّ ما يحتاجُ إليه للوصَول إلى بُغيته . وعرضتُ عليه أيضاً ما كنتُ آخذاً به من جمع الأُصول المشتركة بين اللُّغتَين العربية واليونانية ، ورجوته أن يعيّن لي علاوة عن ذلك عملاً على نسبة قدرتي أجعله باكورة أقدّمها لحفلكم الموقر ، ومقدّمة لما نويت الاعتكاف عليه من الأشغال والدروس في مثل الذي يجدّ وراءه هذا الهمام .

فأشار عليّ أن أضع مجموعة في مناداة البيّاعين لترويج مبيعاتهم من الفواكه والخضروات ، ثم قال لي أن أحرر نبذة في الحرف الموجودة في دمشق آملاً أن أعثر فيما أحرّره عل بعض الكلمات والاصطلاحات التي يقصدها فنظرت بادئ بدء إلى هذين المبحثين نظر المزدري ، ولكن لدى الفحص وجدت أن مبحث المناداة جدير بكل الالتفات ، لأنّه يدل :

(أولاً) على أجلّ الخواص التي يعتقد الشرقيون أنها موجودة في تلك الفواكه والخضروات المتنوعة . (ثانياً) على المحل الأصلي الذي جلب منه صنف الفاكهة أو الخضرة المنادى عليه . (ثالثاً) على محل اشتهار كل قرية أو بقعة من جوار دمشق أو من سورية بصنف من الأصناف .

(رابعاً) على كيفيّة تعبير شعب دمشق في مناداته ، وهذه طريقة تختلف جداً عن التي في بيروت وفي مصر وفي حلب ، إلخ . وجميعها تدخل في مطالب التاريخ والعلم واللغة . وقد كنت باشرتُ بهذه المجموعة ثم أرجأتها ، فموعدي بها في فرصة ثانية .

أما المبحث الثاني المختص بالحرف الدمشقيّة ، فهو من أوجه عديدة أعمّ وأفضل من ذاك ، ولهذا السبب باشرتُ به حالاً ، وسيأتي الكلام عنه بوجه مختصر ؛ إذ أنَّه لا يمكن لمثلي استيفاؤه في نبذة وجيزة كهذه .

* * * * *

تمهيد

إن من تفحّص أحوال الحرف الدمشقية ونظر إليها نظر المنتقد المدقّق ، يرى أنّها في تأخُّر عظيم يوجب الأسف من جهة ، وفي إتقان يوجب الدهشة من جهة أخرى . أما التأخير فلأن عموم الصّنائع والفنون فقدت ما كانت عليه من الرونق في الأزمنة الغابرة ، وهي بعيدة عن أن تُقاس على ما هي عليه الآن صنائع أوربا وأميركا ، بل بعض ما اشتهرت به هذه المدينة القديمة فُقد مطلقاً كعمل السيوف الدمشقيّة [1] والقيشاني والظّاهري [2] ، إلخ . وأسباب ذلك عديدةٌ منه سياسيّة ومنها تجارية ، وأعظمها إهمال العلم في هذه الديار ، وتلك مسألة لا يحسن التعرّض للكلام عليها في مثل هذا المقام .

وأما الإتقان الذي يوجب الدهشة ، فهو كمال الانتظام وحسن الترتيب اللذان لم يزالا محفوظين من أزمنة قديمة إلى يومنا هذا بين عَمَلة اليدين من كل نوع وملّة ، فهذا الانتظام والترتيب ، وإن حصل له من بواعث قلبت مقصده إلى غير الغاية المرادة في الأصل (كما يحدث لأكثر الجمعيّات) ، إنّما لم يطرأ عليه تغيير في جوهره . فالحرف لها رئيس أعظم وهو شيخ المشايخ ، ورؤساء ثانويون وهم مشايخ الحرف ، ومعلمون وصُنَّاع ومبتدئون - أو خُدّام - في كلّ حرفة على حدتها ، ولهم كلام ورموز تُصنع بالأيدي والأرجل (ولو لم نقف على تعبير

---

(1) انظر بحثنا عن «أسطورة السيف الدمشقي» في كتابنا القادم . (إيبش)

(2) إن بعض الدمشقيين أخذ من نحو خمس عشرة سنة بتجديد صنعة النقش على الأواني النحاسيّة المسمّاة : صنعة الظّاهري ، والفصل بذلك للشاب اسكندر بن يوسف دوناتو الذي ابتدأ به حين كان لا يبلغ من العمر إلاّ 12 سنةً ، وتوفّاه الله وهو في شرخ الشّباب . وقد أخذ عنه كثيرون أخصهم من اليهود ، واتسع جداً الاتّجار بالنّحاس الظاهري ، لكنّه إلى الآن لم يبلغ حدَّ الإتقان كما كان في القديم . (قدسي)

معانيها) . ولهم في كل مسألة رسوم لا يحيدون عنها ، ولهم ارتسام يُسمُّونه (الشَّدّ) أو (التَّمليح) يجرونه للمبتدئ عند انتقاله من درجته إلى درجة صانع ، وآخر عند انتقاله من درجة صانع إلى درجة معلّم ، ولهم اجتماعات وأسرار وقصاصات وانتخابات ومآدب . وبوجه الإجمال ، كأنّه بهم جمعية الفَعَلة الأحرار (الماسونيّة) ومعلمهم الأعظم ومُحترموهم وشدّهم ورفقاؤهم ومبتدؤوهم [1] ، إلخ . .

سيأتي الكلام بالتفصيل على كل هذه بقدر الإمكان ، وقد قسّمته إلى فصول ، ذكرتُ فيها ما تيسّر لي الوقوف عليه فيما خصّ شيخ المشايخ ، والنقيب ، وشيخ الحرفة ، والشّاويش ، والمعلّمين ، والصنّاع ، وشدّهم ، والمكافأة ، والقصاص ، إلخ .

* * * * *

(1) هذه المقارنة ، وإن كان فيها بعض المقابلة من حيث الشكل ، لا تعدو كونها قصوراً عن فهم هذه الطقوس السرّية المرتبطة بالشدّ والعهود . والواقع أن هذه الطقوس تتبع إلى ما عُرف في العهود الوسطى (الأيوبية والمملوكية خصوصاً) بعهود الفتوّة وشرب كأس الفتوّة . وترجع أصول الفتوّة إلى مذاهب التشيّع ، التي تضع أمير المؤمنين الإمام عليّ ابن أبي طالب في مصاف المثال الأعلى للفتوّة والفداء ، تحت الحديث النبوي الشريف : «لا فتى إلا عليّ ، لا سيف إلا ذو الفقار» . ثم انتشرت حركة الفتوّة في الإمبراطورية العثمانية في الأناضول ، فعُرفت بـ «فتيان الآخيّة» في القرن السادس عشر ، ثم ارتبطت بالطريقة البكطاشيّة في التصوّف ، التي انضوت تحت لوائها أوجاقات الإنكشارية ؛ فكانت لهم في بلادنا ، بالشام ومصر خصوصاً ، تنظيمات حرفية مخصوصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما يُستفاد من مؤرخي تلك العصور ، كالجبرتي . وما يذكره المؤلف في نبذته هذه في القرن التاسع عشر ، إنما يمثّل البقية الباقية لهذه التنظيمات بدمشق ، التي كانت مرتبطة بالإنكشارية . فلمّا زالت الإنكشارية ، تحوّلت هذه التنظيمات إلى نقابات مهنية مدنيّة ، وصفها لنا القدسي في مرحلتها الأخيرة قبل انقراضها . هذا ولقد ظفرنا في دمشق بمخطوط هام للغاية ونادر عن «عهود الشدّ» السرّية وأصولها ، سوف نقوم بنشره تالياً كتتمّة لهذه النبذة التاريخية . (إيبش)

الفصل الأول

في شيخ المشايخ

هو السيّد الشيخ الحاج أحمد أفندي بن منجك [1]، أرشد عائلة بني عجلان من أشراف دمشق ، ومن السُّلالة النّبويّة الشَّريفة من السّلسلة المحمَّديَّة ، لقِّبت بعض عائلته بـ «مَنْجَك» ؛ نسبةً لإحدى جدَّات العائلة التي كانت من بلاد التتر ، وأمّا سائر العائلة فلم يزل محافظاً على تسميته بيت العجلاني . وهو يسكن في بيته المعروف بالقرب من الجامع الأمويّ ويعيش من إيراد أوقافه في ضواحي دمشق . ولبعض أفراد العائلة مداخلات في خدامات الحكومة المحليّة ، وهم حائزون على اعتبار عظيم ، ولاسيّما السيّد الشّيخ محمَّد أفندي العجلاني أحد أعضاء مجلس استئناف الولاية .

أمّا أحمد أفندي منجك فهو على جانب عظيم من التُّقى الإسلامي ويعرف فرض الكفاية من الفقه الدِّينيِّ ، ولكنَّه ليس على شيء كثير من العلوم الرِّياضيّة وبأقلَّ من ذلك على صنعة أو حرفة . وهو طويل القَّامة ذو منظر وقور ، وقد كلّمته فكان كلامه بسيطاً لا يدلُّ على تصنّع ولا عجرفة .

هذا هو الذي كانت أسلافه تعيِّن المشايخ لأكثر من مائتي حرفة ، وتأمر وتنهى ، وتقاضي وتفصل كلَّ مسألة وتحسم كلّ مشكلة لديهم بتقاضي الجميع ، وهو الشيخ عليهم الآمر الأعلى ، والحاكم الأعظم ، والرّئيس الأسمى الذي لا يُنتخب ولا يُعزل ولا يُبدّل ، ولا يخلعه من منصبه إلا الموت أو الاستقالة .

---

(1) راجع منتخبات التواريخ للحصني ، وكتابي الشطّي في تراجم أهل عصره .

قلتُ : لا يُنتخب ؛ لأنَّ هذه الوظيفة مختصّة بعائلة العجلاني ، كما أنَّ نقابة الأشراف ومشيخة الطُّرق توارث فيهم من أيام الحضرة النَّبويّة الشَّريفة إلى يومنا هذا من السَّلف إلى الخلف يتولاّها الأكبر سنّاً من أعضاء العائلة . وقد حدث شيخ المشايخ الحالي : أنَّ أخاه عطا أفندي الذي كان تبايع معه على المشيخة قبل وفاة والدهما نازعه عليها بدعوى أنَّهم أفقه وأقدر منه على ضبط أمورها وإرجاعها إلى رونقها الأصليّ . أمَّا هو أن يذهب إلى عاصفة السلطنة حتى استحصل السُّلطان علي فرمان عال مثبت لحقوقه في مشيخة المشايخ ؛ إذ أنَّه أكبرُ سنّاً من أخيه وليس به ما يدلّ على عدم أهليَّته أن يتولّى هذا المنصب فنوَّلاه ولم يزل فيه إلى الآن [1] .

أما السلطة التي ذكرتها لشيخ المشايخ فكانت فيما مضى عظيمةً جداً قبل أن تمكّنت سيادة الباب العالي على سورية حين كان رؤساء المسلمين أشرافُهُم لا يقرّون له إلاّ باسم السيادة وكانوا هم الحكّام الحقيقيّون . فكان لشيخ المشايخ السلطة والقدرة أن يلقي من تعدّى من المشايخ أو من سائر أهل الحرف في السجن وأ يكبّله بالقيود وأن يضربه بالعصي .

أما الآن ، فمن عهد السلطان عبد الحميد ومن بعده حيث أعطيت التنظيمات الخيريّة ، قلّ تسلّط شيخ المشايخ إلى حدّ غير متناه ، حتى يسوغ لنا القول : إنّه غدا محصوراً بالتصديق على تنصيب شيخ حرفة من الحرف بعد أن ينتخبه معلّموها . ويعدّ الآن هذا التصديق غير كاف ؛ لأنّه حينئذ يجتهد المنتخب ومريدوه بأن يحصل على البيولوردى [2] (الأمر) وختم الشيخة من قبل مجلس

---

(1) بلغني أنَّ منذ نحو أربعين سنة سعى أحد أبناء الترك مع حكومة الآستانة فسمَّته شيخاً للمشايخ ، وأرسلته إلى دمشق لتنزع هذا الحق من يد بني العجلاني ، فساء أمر الدمشقيين من أهل الحرف وخلافهم ؛ لأنَّه لم يكن من السُّلالة النبويَّة ولا أحد العهود عن أجداد كرام ، فارتأوا أن يجمعوا له مبلغاً من الدراهم ليرجع به من حيث أتى ، وهكذا كان ، فبقي شيخ المشايخ الدمشقي في منصبه ، وسيبقى ومن بعده فيه طالما يعترف لهم بشرف النّسب .

(2) الكلمة محرّفة عن بيورلدى ، والكلمة تركية Buyuruldu ، تعني المرسوم .

البلديّة ، بل كثيرون يكتفون ببيولوردى الحكومة وأخذ الختم غير مبالين بالتصديق من طرف شيخ المشايخ على انتخابهم ، ولاسيّما غير المسلمين منهم ؛ لأنّهم كانوا يدفعون رسوم الشيخة ويحلفون يمين الصداقة لكنّهم لم يُعطَوا العهود كالمسلمين ، ولذا عند انتشار التنظيمات الخيريّة رأوا ذواتهم منفكّين مما كانوا يُجبَرون عليه وبعض منهم لم يُشدّوا قط . والذين لم يزالوا يحرصون على تصديق الشيخ فيفعلون ذلك لاعتقادهم بسريرة شيخ المشايخ سليل النبي (ص) ، وبركاته التي تجلب الخيرات وتدرأ المضرّات . ولذا تراهم إلى الآن يرضخون لأوامره ويلتجؤون إليه عند الحاجة .

* * * * *

الفصل الثاني

في النقيب

لمّا كان لا يليق بمقام الشيخ ، بل لو أراد لم يكن بوسعه أن يكون حاضراً في الاجتماعات العموميّة التي تضطر كل حرفة لعقدها لشدّ صانع أو معلم أو للمذاكرة في شؤونها ، فلشيخ المشايخ أن يبعث من قبله رسلاً يدعون النقباء ويحضرون الاجتماعات ويتلون الأدعية ويجرون كل شيء كما لو كان شيخ المشايخ حاضراً بنفسه . وكان النقباء فيما مضى أكثر من واحد حين كانت إدارة الحرف محصورة في يد الشيخ الأعظم ، أما الآن فقد قلّت أهمّيته جداً فلا يوجد له إلا نقيب واحد وهو السيد الشيخ أنيس الجزائري القماقمي ، وهو من الأشراف من السلسلة النبويّة الشّريفة ، إنما لا تستلزم هذه الوظيفة أن يكون صاحبها شريفاً ولا هي موروثة في عائلته بل للشيخ الحق أن يقيم من شاءه نقيباً وأن يعزله بحسب إرادته ، فالنقيب الحالي نُصب منذ إحدى عشرة سنة ، وهو عالم بكل أحوال الحرف والتراتيب أكثر من الشيخ نفسه .

* * * * *

الفصل الثالث

في شيخ الحرفة

لكل حرفة شيخ ينتخبه شيوخ الكار ممن اشتهر بحسن الأخلاق والطوية وامتاز بمعرفة أصول الحرفة .

ولا يشترط به كونه أكبرهم سنّاً أو كونه من الشيوخ فعلاً فيجوز أن يكون حديث السنّ إلى حدّ معلوم ، فإن شيخ حرفة القفيلاتية سنّه من 25 إلى 30 سنة ، وشيخ الجليلاتيّة من 20 إلى 27 ، والكمرجيّة 20 تقريباً .

والقاعدة بذلك هي كما ذكرت أعلاه بأن يكون حاوياً حسن الصّفات وعنده العلم بأمور الكار ، وأن يكون كما قيل لي (مدفوعاً) بين الناس و(موجَّهاً) عند أرباب الحكومة ، (أي ذا وجاهة) ، ومن المحتمل أنه لا يكون هكذا فعلاً ويكفيه أنّه حاز على هذا الصّيت عند لأهل حرفته بنجاحه يوما ما بحلّ مشكلة .

وفي بعض الحرف تنتقل المشيخة بالإرث من الأب للابن ، وهذا لا يخالف قاعدة الانتخاب لأنّه على كل لا يكون إلاّ بسماح من شيوخ الكار مراعاة لخدامات الشيخ المستوفية ، وأما إذا رُئي انتخاب غيره أكثر موافقة فيجرون الانتخاب بدون مراجعة . أما مدّة الشيخة فغير محدودة ، فيلبث الشيخ طول حياته شيخاً ما لم يجر منه ما يوجب إبداله بسواه .

ومن حقوق الشيخ أن يعقد مجالس لصالح الحرفة يترأسها ويسهر على حفظ ارتباط الكار ، ويُقاصّ من أتى بإخلال في حقّ الصنعة ، وكثيراً ما يكون مكلّفاً بإيجاد شغل للفعلة فيوصي بهم المعلّمين ، وله وحده الحق أن يشدّ بالكار

المبتدئين الماهرين فيصيرون صُنّاعاً أو معلّمين ، وله بعض الإيرادات سيأتي ذكرها ومعه تكون مخابرة الحكومة فيما يتعلّق بحرفته .

وانتخابه يكون على الصُّورة الآتية : عندما يفرغ مركز الشيخة من الشيخ يجتمع شيوخ الكار ، ويعيّنون خلافه بالمذاكرة والاستحسان ، ولا يجرون بذلك على أكثريّة الأصوات بل باتّفاق الآراء ، وقد استقصيت جداً لأعلم هل أنّهم كانوا يراعون في الزمن السّابق أكثريّة الأصوات أم لا ، فلم أقف على حقيقة ما من هذا القبيل لأن الشيوخ إما أن يتّفقوا على تعيين أحدهم وحينئذ لا خلاف ، أو أن يختلفوا فمرجع الأمر إذ ذاك لشيخ المشايخ الذي يعيّن أحد المرشّحين [1] .

أما التصديق عليه من شيخ المشايخ فيتمّ هكذا : يذهب أهل الحرفة من الشيوخ والمعلّمين وبعض الصنّاع المشدودين بشيخهم الجديد إلى شيخ المشايخ فيدخلون عليه ويقولون : «إنّنا قد عيّنا فلاناً شيخاً علينا» . فيأخذ شيخ المشايخ بأن يتلوَ عليه بعضَ آيات قرآنيّة ثم يقدّم له النصائح اللازمة لإدارة حرفته بالعدل والاستقامة والسهر على صالحها ، ثم يسلّمه العهد وبعد ذلك يقال عن شيخ الحرفة الجديد أنه قد دخل على بساط الشيخ ، أي : أنه فاز بالتصديق على مشيخته من لدن شيخ المشايخ .

وفي واقع الأمر عند التصديق يمدّ أمام الشيخ بساط أخضر تذكاراً ببساط النبيّ (ص) ، وعليه يسلّم العهد إلى شيخ الحرفة الجديد أمام الحضور بصوت منخفض .

تعذّرت عليّ أولاً معرفة هذا العهد وكيفيّة إعطائه ، لكنّه بلغني فيما بعد أن ما هو إلاّ نفس العهد الذي يؤخذ على الصّانع حين شدّه وسيأتيك بيانُهُ .

* * * * *

(1) Candidats .

الفصل الرابع

في الشّاويش أو الجاويش

كما أن لكل حرفة شيخاً كذلك لكل حرفة شاويش . ونسبته للشيخ كنسبة النقيب إلى شيخ المشايخ ، والفرق بينهما هو أنّ ليس للشيخ وحده أن ينتخب الشّاويش بل الكار يستحسنه إذا ما قلنا ينتخبه . وليس للشاويش حق ولا سلطة قضائيّة على أهل حرفته بل هو رسول الشيخ ومتمّم أوامره ، فهو يدعو بإذن الرئيس شيوخ الحرفة وسائر أهلها للاجتماع ، ويكلّفهم لحضور الشدّ والولائم ويبلّغ الجزاء لمن حكم عليه الشيخ بشيء .

ومما فهمتُه عنه أنّه يجنح على الغالب للصنّاع أكثر مما يميل لسواهم من أهل الكار فإنّه يعدّ ذاته منهم ، حتى أنّه عند الثورات التي تحدث من الفَعَلة على المعلّمين بطلب تزييد الأجرة (أو يعبّرون عنها بقولهم : الكار قالع ، أي : ثائر) هو الذي يطوف عليهم ويحثُّهم على الثبات لنيل المقصود .

وربما ظنّ أحد أن وظيفة الشاويش مستحدثة بسبب أن هذه التسمية غريبة عن العربيّة وفارسيّة الأصل ، ولكن هذا الظنّ غير صحيح فإنّ وظيفة الشاويش قديمة جدّا وأعتقد أنّه كان له في الأصل تسمية غير هذه لم أقف عليها ، وأنه حدث بها ما حدث على تسمية المُحْظُر (وصحيحها المُحْظر من حظر عليه = وضعه في السجن ، أو المُحْضر من أحضره أمام الشرع) في المحَاكمَ الشرعيّة ، فقد جرى الآن الاصطلاح بتسميتهَ مبَاشراً في المحاكم النظاميّة ، فإذا ألغيت يوماً المحاكم الشرعيّة تبقى تسمية المباشر جارية وتندثر تلك لا محالة من ذاكرة الناس .

الفصل الخامس

في المبتدئ

إنني بعد أن سردت بعبارات وجيزة ما كان من أمر المترأسين في إدارة الحرف بقي عليّ أن أذكر ما علمتُه بحق المرؤوسين أو الفعلة ، وهذا هو القسم الأكثر فكاهةً في هذه الرسالة ، لكنني سأجري به بعكس ما جريتُ عليه أولاً ، أي : أني سآتي على ذكر المبتدئ والصانع والمعلّم وما يتعلّق بهم لنرى كيف يرتقي المجتهد في سلّم التقدّم في حرفته . أمّا بخصوص المبتدئ فليس عندي أن أذكر إلا شيئاً يسيراً وهو أن المبتدئ أو الأجير هو الولد الحديث السن الداخل مجرّداً إلى الحرفة ، إما لكي يحترف حرفةً أو ليملك بيده ما يصون مستقبلَهُ من العوز والفاقة .

فيبقى المبتدئ عدّة سنين بلا معاش ولا أجرة ، ويكتفي أهله بتعليل أنفسهم أنه ساع بأخذ الصَّنعة عن أستاذه . ومنهم من يرتب له جُمْعيّة (أي أجرة تدفع له كل أسبوع) متناسبة مع مهارته ، لكنّه يلبث مسمّىً أجيراً إلى أن يدخل في سنّ الرجوليّة أو يصل في صنعته إلى حدّ الإتقان فيدعى صانعاً ولو لم يُشدّ بالكار بعد ، أما أجرته فتبقى مخفوضةً نوعاً ، ولا يسمح له أن يفتح محلا وحده لحسابه [1] ، وهذا ممّا يشوق المبتدئين أن يُقبّلوا بالشدِّ أملا بازدياد الأجرة .

ويحسن بنا أن نذكر هنا بعض الأمثلة والأقوال الدّارجة التي تجعل الناس يحيلون للانعكاف على عمل اليدين ، وهي :

---

(1) كان هذا جارياً بدقة وصرامة حين كانت الكارات منوطة بشيخ المشايخ ، أما الآن فلا يعتبر الشدّ أو عدمه سبباً لقفل محل فتحه أحد المبتدئين ؛ فإن الحكومة لا تساعد بذلك ، وعملت جهدها على رفع تسلط مشايخ الحرف ليكون لها وحدها الحق القضائي .

1 - (مثل) «كارٌ باليد أمانٌ من الفَقْر» والعامّة تقوله هكذا : كارٍ باليد أماناً من الفُقْر .

ومعناه : أن الإنسان إذا كان يعرف صنعةً ما أمن بواسطتها من أن يمسيَ يوماً فقيراً ، ولهذا كثيرٌ من أهالي بلادنا من ذوي الاقتدار يعلّمون أولادهم أحد الكارات بعد معرفة القراءة والكتابة .

2 - (مثل) «صاحب صنعة مالك قلعة» ، ولا يختلف كثيراً معناه عن المثل السَّابق .

3 - (مثل) «إلّي ما له كارات بيعاير رطيلات» يعني : أن الذي ما ساعدته الظُّروف بأن يتعلّم إحدى الصّنائع يقضي عمره وهو يعتني بتقدير الأوزان دون أن يجديه ذلك نفعاً .

4 - (مثل) «اشتغل بفلس و حاسب البطَّال» أي : أنَّ الشّغل ولو بأجرة زهيدة يفضّل على البطالة .

5 - (مثل) «من كثرت كاراته قلَّ ما بيده» : إنَّ هذا المثل ليس يدلّ على الحثّ بأن يتخذ الإنسان كاراً فقط ، بل يوجب عليه أيضاً أن لا ينتقل من كار إلى آخر لأنّ ذلك يكون سبباً لضياع وقته سدى .

6 - (من الأقوال الدّارجة) «خدمتها أجبر معلّم» لا يأنف أن يقول ذلك بعضهم افتخاراً مشيراً إلى أنّه قد تعلّم كاراً من الكارات ومرّ بدرجاته من الأجير إلى المعلم .

وسمعت يوماً أحد الحزّامة يقول :

7 - (من أقوال العامّة) «علّمت ابني كار الحزامة وجوّزته وشدّيته فما له برقبتي بعد ، هل قصّرت معه بشيء ؟» ، كأنّه بتزويج الولد وتعليمه الكار وشدّه تنتهي واجبات والده نحوه .

الفصل السادس

1 - في الصّانع

إنّ الصنّاع هم العدد الأكثر والسّواد الأعظم في كل الحرف والكارات ، وعليهم مداد العمل ومن أجلهم وضعت هذه التراتيب التي نحن بصددها وبهم تتوارث وثيقة العمل في كل الأزمنة ويحفظ سرّ المعرفة في الفنون والصّنائع . وهم كالأرض ينبوع ثروة البلاد ومصدر كنوزها الثّمينة ، بل لولاهم لما كنّا نحصل على كبير نفع ممّا تنبته الأرض لنا من مواد الغذاء والكساء ، أجل إنّ الصّانع والفلاّح هما القوّتان المادّيتان اللّتان عليهما يتوقّف نجاح الأمم أو تأخّرها .

ومع أن هذا الأمر بديهي لا ريب فيه ، لم يُلتفت إليه من زمن طويل ، وقد أهملت جداً آداب الصّانع وتعليمه حتى فقد بالكليّة بعض من الصّنائع كما سبق الإيماء إليه ، وبعضها الآخر كاد يبيد لولا أن يتقيّد بالسّلطة المتسلسلة في الحرف . فالآن لا يطلب من الصّانع أن يكون عارفاً القراءة والكتابة بل يكفيه أنّه قد حصّل درجة المهارة في صنعته مع أنّه كان من جملة الشروط الموضوعة أن لا يقبل بشدّ أحد في الكار ما لم يكن قد تاب عن المنكرات ورخى ذقنه (أي : التحى) .

2 - في شدّ الصّانع

عندما يبرع الأجير في المهنة التي امتهنها منذ حداثته ، يأخذ زملاؤه وشاويش الكار بالإلحاح عليه بأن يُشد بالكار (أو أن يُملّح) ، أمّا الشّاويش فلأنّه ينتظر ما يصيبه من رسومات الشدّ ، وأمّا زملاؤه فلأنّهم يبتغون ازدياد عددهم

وربط الداخل الجديد بعهود الإخاء ، فيحاول تأجيل الأمر إلى وقت آخر ويساعده حينئذ على ذلك معلّمه بالتّردّد عن القبول بشدّة قائلاً للملحِّين : «لسّا ما حلُّه ، هدا دبسّاتُهُ مراق» . وهذا من كلام العامّة ومعناه : أن أجيره للسّاعة الحاضرة لم يأت الوقت الملائم لشدّه وأن دراهمه لا تحتمل مصروفاً غير عادي .

وحالما يقبل الأجير بالشدّ يسرع الشاويش بأن يهديه على الفور عرقاً أخضر ، وهذه إشارة معناها أنه وجب عليه أن يولم وليمةً لرفقائه ، ويكون العرق الأخضر على الغالب من الرّيحان ، ويجوز أن يكون من نوع آخر ومن أغصان الشجر أيضاً ؛ لأن الشّاويش يقطع عرقاً نضراً من أول ريحانة أو شجرة يصادفها ويسرع بتقدمتها للمزمع أن يُشدّ . فيأخذ ذاك منه العرق بكل قبول وشكر ويبوسه ويضعه على رأسه ، فيذهب حينئذ الشّاويش إلى شيخ الحرفة ويخبره بأمره فيقيّد اسمه مع المزمعين أن يشدّوا سويّةً إذا كان منهم أحد ، وإلاَّ فيعيّن له وحده يوماً ليُشدّ به ، ثم يرجع الشّاويش ويدعو نيابة عن المرشّح للشدّ رفقاءه وشيوخ الحرفة وشيخها ونقيب شيخ المشايخ ومن شاء من عندهم ، وفي بعض الأحيان يدعوهم هو نفسه لحضور شدّه .

الشدّ يصير إمّا في أحد بساتين المدينة نهاراً ، أو في أحد البيوت ليلاً أو نهاراً ، ففي اليوم المعيّن يجتمع الصنّاع وسائر المدعوّين في المكان المعدّ ، ثم يحضر شيخ الحرفة والشيوخ والنقيب ، وبعد مبادلة السّلام والكلام يقول النقيب : «يا إخوان لنبتدئ بشغلنا» فيصمت الجميع ، أما هو فيأخذ الشاويش والطالب إلى غرفة ثانية ويشدّه هناك بالطريقة التي سيأتي ذكرها ، ثم يرجع به إلى مكان الاجتماع ، ويكون النقيب متقدّماً عن الشاويش والمشدود ، وبعد النقيب يمشي الشاويش حاملاً بيده صينيّة وعليها هدايا الشدّ كما ستعلم ، فيأتي بها ويضعها أمام شيخ الحرفة على طاولة صغيرة مربعة تسمِّيها العامّة (اسكملة) ، ثم يأتي الطالب مكتوف اليدين على صدره بكل حشمة ومشدوداً بالمحزم ، فيوقفه الشاويش في الوسط على بساط أخضر ، ويجعل إبهام رجله اليمنى تعلو إبهام رجله اليسرى . وفيما هو على هذه الحالة يطلب النقيب من الشاويش أن يقول

الفاتحة ، فيتلوها بصوت عال ويكون الجميع راكعين على ركبهم وطارقين رؤوسهم إلى الأرض ، ثم يطلب النقيب الفاتحة الثانية التي يسمّيها (ثاني شرف) فيقول الشاويش الفاتحة مرة ثانيةً ثم يطلب الختام بذكر سيد المرسلين فيتلو الفاتحة دفعةً ثالثةً ، وبعد أن يفرغ منها يأخذ النقيب في السلام على الحاضرين من الزوّار الكرام [1] إذا كان أحد منهم موجوداً ، وإلاّ فيكتفي بالسبعة سلامات الآتية ، وهي :

سلام للعموم : «أول سلامي عليكم يا حضّار . السلام سنّة وردّه فرض [2] يا أخيار ، في إذن افتح بساط الطريق باذذكار ، أو أخلّيه مطوي يا أهيل الحي ، الفاتحة اقرؤوها معي أنتم بأجمعكم للنّبي المختار» .

فكلٌّ من الحضور يتلو الفاتحة بصوت منخفض ، أما الشاويش فيتلوها بصوت عالٍ . سلام ثان لأهل الصّدر ، وهم شيخ الحرفة وشيوخها :

ثاني سلامي على أهل الصدر أسيادي
وأهل الجناحين بهم زاد إرشادي
من قبل ما أدخل وسمّعكم بإنشادي
يا من حويتم المكارم والذكا والذوق
والفاتحة اقرؤوها معي أنتم بأجمعكم
إلى النبي الهادي

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

---

(1) إن السلام على الزائرين هو : أزكى السلام التام عليكم جميعاً يا ذوي المكارم والعلو والافتتاح . أنتم حويتم الفضل يا سادتي وجمعكم معروض بأصلح الصلاح . أزكى السلام التام على أهل الوفا ذوي المكارم سالكين الطريق . معدن الأفضال ومن لهم طلعة نورها شريق ، ما مثلكم يوجد في الوجود على ما يليق ، انتهى . ثم بعد أن ينتهي النقيب يتلو الشاويش الفاتحة .

(2) اقتباس من القرآن ، سورة النساء - 86 (لاندبرغ) .

ثـالث سـلامي علـى أهـل الميمنـة بـالحيّ
وأركـان هـذه المجـالس وكـل مـن بـالحيّ
كـم حـيّ ميـت وكـم ميّـت خـرج مـن حـيّ
واقـرأوا الفاتحـة معـي أنتـم بـأجمعكم
إلى نبي شرّف ليثرب مع الحجرة وذاك الحيّ

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

رابـع سـلامي علـى أهـل الميسـرة بقبـول
عبـير تلـك السـلام يجـي عرضهـا والطـول
والفاتحـة اقرأوهـا معـي أنتـم بـأجمعكم
إلـى نبـي أتـى لنـا رحمـةً ورسـول

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

خـامس سـلامي عليكـم يـا سـادتي أحسـن
عبـير تلـك السـلام كـالعطر بـل أحسـن
نظمـت مـن بحـر فكـري مـا لقيـت أحسـن
إلا امتداحـي بـأهل الفضـل بـل أحسـن
كـلّ فاتحـة اقرأوهـا معـي بـأجمعكم
إلـى النبـيّ أحسـن

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

سـادس سـلامي عليكـم أيهـا الأصـلاح
سـلام نشـره عبـق الأريـاح
نقيبكـم واقـف ينشـد كـلام وضّـاح
والفاتحـة اقـرأوا معـي أنتـم بـأجمعكم
إلـى نبـيّ بالشَّـفاعة انسـج الأرواح

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

سـابع سـلامي عليكـم أيهـا الأحبـاب
السـلام سـنّة وردّه فـرض يـا أنجـاب
غريـب ومسـكين ودمعـة غـرّق الاثيـاب [1]
في قصـده يلتطـخ في زعفرانكـم
في إذن يدخـل ولاّ يـلزم الأعتـاب
والفاتحـة اقرأوهـا معـي بـأجمعكم
إلـى نبـيّ بمعجزاتـه حـيّر الكتّـاب [2]

الشاويش يتلو الفاتحة جهاراً

وبعد فراغ النقيب من هذه السلامات يتلو بعض نشائد نبويّة منها :

يـا أهـل بيـت رسـول الله حبكـم فـرض علـيَّ وبـالقرآن أنزلـه [3]
كفـاكم مـن عظيـم القـدر أنكـم مـن لـم يصـلّ علكـم لا صـلاة لـه

(1) كثيراً ما يصدف أن المشدود حين شدّه يكون مغرورقاً بالدموع من شدّة التأثير .
(2) كتابة النبيّ ﷺ الذي كان أُميّاً ومع ذلك حيّر بمعارفه أهل المعارف .
(3) إنّ أكثر هذه النشائد مخلولة الوزن ؛ لأنّ الذي تلقّيتها منه غيرَ عالمٍ بالعربيّة .

- الفاتحة - وغيرها :

رسول الله ضاق بى الفضاء ... وجلّ الخطب وانقطع الرجاء

فجاهك يا رسول الله جاه ... رفيع ما لرفعته انتهاء

رسول الله إنى مستجيرٌ ... بجاهك والزمان له اعتداء

وبى وجل شديد من ذنوب ... وما أدري أعفو أم جزاء

وما كانت ذنوبى عن عناد ... ولكن بالقضا غلب الشقاء

وظنّى فيك يا طه جميلٌ ... ومنك الجود يعهد بالسخاء

وحاشا أن أرى ضيماً ولا ... ولى نسب بمدحك وانتماء [1]

ثم ينتقل بعد ذلك إلى فتح الأشغال فيقول منشداً :

فتحت بباب الطريقة أرتجى منَنَا ... من خالق الخلق ربى بارئ النسم

وجئت مستأذناً أرجو بفاتحة ... غفران ذنبى وما قد كان من إثمى

وذلك من أجل إجراء العهو ... د هنا وحفظها فيه غاية النعم

من حيث ما كان أصل العهد جاء ... أبيك آدم يا ذا الحّر فافتهم

منه لشيث وإدريس كذاك سرى ... إلى أنبياء الله [2] كلِّهم

ختْمهم سيّد الكونين أحمدنا ... نور الشريعة سامى الفخر والهمم

وجاء بالعهد آيات مكرّمةٌ ... فحافظ العهد في خير وفي نعم

وخائن العهد لم تربح تجارته ... وهو بالحشر كم يلقى من النقم

---

(1) هذا الشعر لمحمد الكازروني ، انظر فهرسي لمجموعة مخطوطات بريل ، رقم 161 ، (لاندبرغ) .

(2) يمكن جعلها : (دَعَوا الله) ليستقيم الوزن ، (لاندبرغ) .

ثم يلتفت قائلاً إلى المشدود :

«أوصيك يا من تخاوي أو تعاهد اختشي من فرض رب العالمين ، إن عهدك ثم شدّك في غد يشهد عليك يوماً تقف حائرين . من يحفظه رب السماء ومن أطاعه ينكتب من المبعدين . وأختم نظامي بمدح أحمد المختار إمام العالمين ، - الفاتحة -» .

أما ربط المحزم (وهذا يكون إمّا من المحازم أو من الشّالات) فهو حقّ النّقيب ، فيرفع يدي الطّالب من على صدره إلى قمّة رأسه جاعلاً بطن كفّه اليمنى يعلو ظهر كفّه اليسرى وأصابعه ملتصقات (سألت لماذا لا تكون الأصابع العشر مشتبكات بعضهنّ ببعض ، قيل لي : إن ذلك لا يوافق لئلاً تتعربس الأمور على المشدود فالتسريح أولى) . ثم يفرد النقيب المحزم ويلف المشدود به من وسطه إلى قرب قدميه ، ويعقد طرفيه الأعليين من الخلف إلى الأمام ثلاث عقد : الواحدة احتراماً لشيخ الحرفة ، والثانية لمعلم المشدود ، والثالثة للشاويش . وتفسير ذلك أنّ الشيخ له وحده القدرة أن يحلّ الأولى من الثّلاث عقد ؛ لأنّه رئيس الحرفة كي يعلم المشدود ما له عليه من واجبات الخضوع ، وأما الثانية فيحلّها المعلّم ليفتخر أنّه أخرج تلميذاً ماهراً ، أو كما يقولون شراقاً (جراق) من تحت يده . ويحلّ الشاويش الثالثة لأنَّه أحد السّلطات الثلاث التي على المشدود أن يخضع لها في الكار .

إنّ التفسير المار ذكره تلقّنته من شاويشية بعض الحرف ، إنّما لا أظنه صحيحاً ، لأنّ النقيب أخبرني أنّه في شد بعض الحرف يجعل العقد ثلاثاً ، وفي بعضها خمساً وفي بعضها سبعاً ، ويراعى بذلك شدّة تمسك أهل تلك الحرفة بحفظ العهود والأمانة أو عدمه .

وتدلّ هذه العُقَد على عَقْد العهد والميثاق بالإخاء ، فيعتبر حينئذ أهل حرفة المشدود هذا الأخير كأخ لهم ، لا بل يفضّلونه في بعض الظروفً على الأخ الطّبيعي ، وربما من ذلك أطلق القول بعَقَد العهد أي : تعهّد بحفظه .

وقد لاحظت أنّ أكثر المحترفين من الأوربيّين يربطون مئزرهم من الأمام إلى الخلف ، أي : أنهم يجعلون عقد المئزر وراء ظهورهم بعكس محترفي بلادنا السّورية الذين في وقت الشدّ وغيره لا يربطون المحزم إلاّ من الخلف إلى الأمام تذكاراً بوقت شدّهم .

وبعد أن يتمّ النقيب النشائد والفواتح يعيّن أبا الكار للمشدود أحد الحاضرين من المعلّمين ، وعلى الغالب يكون معلّم ذلك المشدود أباً له بالكار ، ويجوز أن يتخذ خلافه ، لأنّه لمّا كان يعدّ الأب بالكار بمنزلة كفيل فهو مطالب بما يقع به المشدود من الخلل ، فإذا كان المشدود غير ممدوح السيرة يتمنّع معلّمه من قبوله ابناً له (وهذا نادر الحدوث) فيعيّن حينئذ خلافه . ثم يأخذ شيخ الحرفة بأن يقدّم للمشدود النّصائح الآتية : «يا ابني إن جميع الحرف هي كارات أمانة على الأموال والأعراض والأرواح ، والأمانة هي الدين فإذا نفق كارك احفظ دينك . كن صادقاً وأميناً ، واعلم أنّ كارك مثل عرضك حافظ عليه بمقدرتك ، وإذا استلمت أموال الناس فلا تفرّط بها ، وإياك أن تخون أهل الحرفة ، والخائن قبيله الديّان» . ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم قائلاً : «ما قالت الإخوان إخوان وصنايعيّة ومعلمين ، هل هذا المشدود يستحقّ مصانعةً ؟» ، فيجيبونه : «نعم مستأهل ومستحقٌّ» ، فيتقدّم حينئذ أبوه بالكار ليبايعَه ويأخذ عليه العهود ، فيركعا سويّةً الواحد إزاء الآخر نصف ركعة ، أي : أنّ ركبتيهما اليسريين تمسّان الأرض ، وأمّا رجلاهما اليمينان فتنثنيان نصف ثنية ويقتربان من بعضهما حتى يتلاصق الإبهامان اليمينيّان وأعلى الركبتين ، ويمسك الأب بالكار بيده اليمنى يد المشدود اليمنى مسكة الإخاء المعروفة ما عدا أنّ إبهام يد الواحد والشّاهدة يتلاصقان حول إبهام يد الآخر فيستر الشّاويش أيديهما بمحرمة أو منشفة كي لا يطّلع الحاضرون من الخارجين على الإشارة التي تتبادل بينهما . ويقول حينئذ الأب للطالب : «عاهدني بعهد الله ورسوله أنّك لا تخون أهل الحرفة ولا تغشّ الكار» ، فيعاهده بقوله : «أعاهدك بعهد الله [1] ورسوله أنّي لا أخون الكار ولا

(1) تجد في الجزء الثاني من كتابي «الأمثال والأقوال المأثورة للشعب العربي» شرحاً مفصّلاً

أغشّ الصَّنعة بشيء» . فيتلو النقيب فوق رأسيهما الفاتحة ثم ينهضان . ويطوف بعد ذلك الشاويش على مشايخ الحرفة بالمشدود فيحل كل منهم عقدة كاملة من عقد المحزم إذا كانت كثيرةً ، أو نصف عقدة إذا كانت قليلةً ، وأمّا آخر عقدة فيحلّها الشّيخ ويسلّم المحزم إلى الشّاويش الذي يضعه على كتف المشدود ، ويقول له مهنّئاً إيّاه : «جعله الله مباركاً» .

3 - الهدايا المرسومة

ثم توزّع الهدايا التي ذكرنا أنّها موضوعة في صينيّة على «اسكملة» أمام شيخ الحرفة وقت الشدّ . وهي لكلّ من شيخ الحرفة وشيوخها والنقيب :

«لوح صابون مطيّب ، وشورة شاش مطرّزة ، وخلال ، وعرق أخضر» ، ومنهم من أضاف إليها : كيساً لوضع التمباك ، ومسبحة .

وقد بحثتُ جداً لأقف على معنى هذه الهدايا فما أخذت جواباً يقنعني ، وأظنّ أنّها هدايا تتعلّق بالوليمة ؛ لأنّ الصّابون يصلح لتنظيف اليدين بعد الأكل ، والشُّورة لمسح الفم ووقاية الأثواب ، والخلال لأجل تنظيف الأسنان الأماميّة من طرفه الواحد وتنظيف الآذان لسماع آلة الطرب من طرفه الآخر ، والعرق الأخضر لتزال به رائحة الأكل من اليدين بعد التغسيل . . والله أعلم .

وبعد توزيع الهدايا يتلو النقيب الفاتحة فتكون خاتمة العمل .

4 - الوليمة

من الحضور من يأخذ بتهنئة المشدود بعد شدّه ، ومنهم من يباشر بالعراضة ، وهي رفع الأصوات بتهليل ؛ حيث يقولون مراراً عديدةً :

عن ((عهد الله)) عند البدو . (لاندبرغ) .

«صلّوا على عيسى وموسى ومكحول العين ، ومن يقدر يعادينا ، هه . . . . . » .

وإن كانت الوليمة قد أعدّت في ذلك النهار فيجلسوا حالاً على الطّعام ، وإن كان تعيّن لها اليوم الثّاني أو يوم آخر فينصرفوا ويحضروا بالوقت المعيّن . ومن المشدودين من يكون قد أعدّ أيضاً آلة الطّرب قبل الأكل ، أمّا المُسكرات فلا دخل لها أصلاً في هكذا احتفالات ، وإذا أراد أحد من غير المسلمين أن يحضر شيئاً منها فيفعله سرّاً .

أما الأكل فيكون من أبسط المأكولات ، وعلى الغالب صفيحة وشعيبيّات بسكّر يصطلح أهل هذه المدينة على استحضارها عند الفرّانة ليخفّفوا بذلك الثّقلة عن أهل بيوتهم .

ويُسمّون الوليمة «التّمليح» أي : طعام الأصحاب من الخبز والملح ، ومنه يستعمل الفعلة فعل «ملّح يملّح» ، بمعنى عمل وليمة الشدّ ، ومنه (بعده) أكَلَ الوليمة ، ومنه معنى : نصب عليه وأخذ منه دراهم فيقولون : فلان ملّح له بألف غرش ، أي : أكل عليه ألف غرش .

ولا يخفى أن الخبز والملح أو الملح وحده هو من المواد التي يرمزون بها من أقدم الأزمنة إلى حسن السجايا وحفظ العهود . هكذا ورد في الإنجيل قول السيّد المسيح إلى تلاميذه : «أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح بماذا يملّح؟» . وهكذا هوميروس يتكلم باحتقار عَن الناس الذين لا يمزجون الأكل بالملح (الأوديسّة ، 6 : 123) .

وأفلاطون يسمّي «الملح» في تيماون - محبوباً عند الآلهة ، ومن الأقوال الدّارجة العربية : «الحكم ملح الأرض» و«ابن التُّرْك ملحه على ذيله» ، أي : أنّك طالما تطعمه يحفظ ما يقع على أذياله من خبزك وملحك . وإذا قام يقع ملحك عليها ، أي أنَّه ينسى ما أنعمتَ عليه به . وأيضاً : «يا حوينة الخبز والملح الذي أكلته عندي» ، و«تذكّر يا فلان الخبز والملح» .

والخلاصة : أنّ الملح له عند العرب واليهود واليونان كما وعند الرّوسيّين شأن عظيم ، ولا أعلم إذا كان هكذا الحال عند باقي الشعوب الشرقيّة والغربيّة .

5 - كلفة الشدّ

إن كلفة الشدّ تختلف بحسب درجة غنى المشدود من أربعين فرنكاً إلى مائة فرنك ، وهاك تفصيل ذلك :

إلى الشيخ : من 4 فرنكات إلى 10

إلى النقيب : من 2 فرنك إلى 6

إلى الشّاويش : من 2 فرنك إلى 3

أجرة الجنينة ومصروف الوليمة : من 21 فرنك إلى 81

6 - ملاحظات

أولا :

إن الروايات تختلف كثيراً في ترتيب الشدّ ، فمنهم من قال لي : إن توزيع الهدايا يسبق الشدّ وأخذ العهود ، ومنهم من قدّم أخذ العهود على تقديم النّصائح . وقد اعتمدت فيما ذكرت على ما ظننته أقرب للصّحّة .

ثانياً :

إن شدّ المعلّم ، أي انتقال الصّانع المشدود إلى درجة معلّم يختلف عن شدّ الصّانع بما يأتي :

أولا : أنّهم لا يسمّون له أباً بالكار .

ثانياً : أنّهم لا يربطون له المئزر .

ثالثاً : أنّهم لا يأخذون منه العهود بركوعه ، بل يكتفى بأخذ قول منه على أصول الكار والحرفة .

ومن الصّنّاع من يُشدّ في النّهار ذاته صانعاً أو معلّماً ، والطريقة بذلك أنّهم عندما يسأل الشيخ قائلاً : «ما قالت الإخوان ، هل يستحقّ مصانعة ؟» يضيف إليه سؤالاً آخر قائلاً : «هل يستحقّ معلميّة ؟» فإن كان مستحقّاً يجيبوه بالإيجاب ، وإلاّ فيقولون للطالب : «حاجتك هلّق مصانعة ، إنشا الله سنة الجاية تصير معلّم» أي يكفيك الآن أن تشدّ صانعاً ، فإن شاء الله في السّنة الآتية تصير معلّماً .

ثالثاً :

إذا كان المشدود لا يستحقّ أن يأخذ المصانعة ، فعندما يقول شيخ الحرفة : «ما قالت الإخوان ؟» فمعلّمه أو الذي يريد أن يعارض بشدّه يطرح بين أيدي الحاضرين صاية أو عملاً من شغله ، ويقول للشيخ ومعلّمي الحرفة : «احكموا بذلك إن كنتم منصفين ، هل يستحقّ هذا الرجل الشدّ أم لا ؟» فيفحصوا العمل ، وإذا كان فيه ما يوجب تأخير المشدود فيؤخّروه ولا يخشون بذلك لومة لائم ؛ لأنّهم يفضّلون أن يبقى الكار سالماً من السّقط والشّوائب أكثر مما يحرِصون على خاطر أحد الصنّاع .

رابعاً :

ممن الممكن أن يشدّ كثيرون دفعةً واحدةً ، والعمل بذلك هو : أنّهم يوقفونهم بالوسط بالقرب من بعضهم ويشدُّون كلا منهم بمحزمٍ ، ويجرون باقي الترتيب كما لو كان المشدود واحداً .

أما الهدايا وسائر المصروف والرسوم فتدفع محاصّةً ، أي : كلّ بقدر ما ينوبه منها .

خامساً :

إن المحترفين من كلّ المذاهب يشتركون بالشدّ ، أمّا المسيحيّون واليهود فلا يعطون شيئاً من العهود والإشارات ، بل يكتفى بشدّهم بالمحزم وبتلاوة : «أبانا الذي في السموات ... إلخ» وهم يسمّونها «فاتحة النّصارى» ، أو بتلاوة الوصايا العشر في شدّ اليهود . ويسمّون لهم آباءً بالكار من المسلمين ويأخذون منهم العهد والميثاق بأن لا يخونوا الحرفة ، ولا يضرّوا بالأموال والعباد .

سادساً :

إن حرفة البنّائين والنّحاتين الذين جميعهم من المسيحيّين لا يعرفون الشدّ ، ولا علاقة لهم بشيخ المشايخ ، فيقيمون منهم شيوخاً معلّمين ويضعون روابط لأنفسهم يصونون كارهم بها . ولهم الآن جمعيّة معلّمين مؤلّفة من اثني عشر عضواً تجتمع بالشهر مرةً ، وتعيّن رئيساً لها في كلّ ثلاثة أشهر تبدله بسواه . ومن أخصّ واجباتها حفظ رابطة الكار ، وقد أفادني أحدهم أنهم إذا لم يقدروا على أن يصونوا رابطة كارهم من الأخلال ففي نيّتهم أن يذهبوا إلى شيخ المشايخ ليقيم عليهم شيخاً ، ويتردّدون بذلك هرباً من الدّخول تحت استئسار لا يسهل عليهم التخلّص منه فيما بعد .

إنّ النقيب نقض ما بلغني عنهم بأنّهم لا يشدّون قط ، وقال : إنّهم كانوا يشدّون قبلاً ثمّ تملّصوا من سلطة شيخ المشايخ ، وسأبحث عن ذلك .

سابعاً :

أذكر على سبيل التّفكيه - ولعلّ في ذلك أيضاً منفعةٌ - أنّ صنف المسخنين والمهرّجين أو الطُّفيليّة أو الظُّرفاء - كما يقولون عن أنفسهم - يدّعون أنّهم حرفة منتظمة لها مشايخ معلّمون وشاويشيّة ، وكان قبل سنة 1860 شيخ المسلمين منهم أمين آغا خُمْخُم ، وشيخ المسيحيّين يوسف شاتيلا ، وشاويش الكار جبران سبانخ . وأمّا بعد ذلك التاريخ فلت الكار ولم يغد له رابطة ولا أصول .

وكانوا يجرون شدّهم على طرق هزليّة مفلقة ، وقد وقفتُ على بعض بعض ما كانوا يتفنّنون به في هذا الموضوع ، فإنّ الشدّ عندهم هو تمثّل لما هو جارٍ في سائر الكارات ، إنّما النّصائح التي يعطونها للمشدود هي :

«يا بني إذا فرغ جيبك استر عيبك ، واعلم أن المهرّج الشاطر من كان مثل الرماح على أكتاف الأجاويد فيقتضي أن تكون كالذئب تأخذ الريح عن الأعراس والولائم والسهرات فتذهب في كل مساء لقرب باعة الحلويات والمعجّنات والقشطة فتترصّد من أتى وابتاع شيئاً منها فتعلم من ذلك أن عنده وليمة فتسرع حالاً إليها وتدخل على القوم بوجه باش ، ويكون في جيبك ألف قصّة مضحكة حتى لا ينشف وجه صاحب البيت منك وإن كان بخيلاً ، وإذا صادفت أحد أولاد الكار فإياك أن تعاكسه بل اتفق معه على شيّات [1] (أكلات) الغير ، وانتقل من القاعة إلى المطبخ بخفّة حتى تعلم ما الأكل المطبوخ وما الحلو المعدّ ، فإذا علمت أنّ الأكل أطيب من الحلو فقل لرفيقك عند جلوسك على الطعام : الصّلاة على الحاضر ، وإذا كان الحلو أفضل فقل له رامزاً بدون أن يفهمك سائر الحاضرين : أيها الناس إنّ الدّنيا لا تغني عن الآخرة ، واعلم أن اسم الكنافة عندنا : «مُخَيْطنة» ، والقطائف : «لزيقيّات» ، والمعمول : «ضربات الأنْجق» ، والهيطليّة : «ستي ازمقي» ، والعنب : «فُقّي» ، والعوّامة : «رصاص الأنبياء» ،

(1) شيّات : مفردها (شيَّة) تستخدم بدمشق بنفس معنى كلمة (بتاع) الشّائعة على السّاحل وَفي مصر . وهي مَحرّفة عن (شيء) الفصحى . أما في فلسطين فيستعملون مرادفاً لها (قيّة ، جمعها : قيّات) ، (لاندبرغ) .

والكوسا : «مدافع الجوع» ، إلخ» ، انتهى .

ويرفق الشيخ أو أحد المعلّمين كلا من هذه النصائح والتعاليم بصفعة على رقبة المشدود يتلقّاها بالشّكر وهو صاغر ، إلى أن يتمّ الشدّ على هذا المنوال . ولا ينفعه الشدّ شيئاً سوى أنّه يعدّ حينئذٍ من معلّمي التهريج والأسخان لا ينازعه على كاره منازع .

الفصل السابع

في المكافأة والقصاص

إن الارتقاء إلى درجة صانع ومعلّم هو المكافأة العظيمة التي ينتظرها عَمَلة الحرف على اجتهاداتهم ، فلا وجود هنا للمعارض العموميّة أو الخصوصيّة ، ولا مسابقات ولا جوائز ولا من يضمن لمن أتى بتحسين أو اختراع في فنّه أن يحصل على مكافأة ماديّة أو امتياز يكفل له المستقبل وينشط غيره إلى الاقتداء به .

نعم في النظامات الجديدة خصص بعض من بنودها لهذا الموضوع ، إنما جرى ذلك مماثلةً بالنظامات الأوربيّة ، وعلّمتنا الحوادث أنّها بقيت في حقيقة الأمر حبراً على ورق مهملةً في زوايا النّسيان .

أما القَصاصات فقد وجّهوا إليها أفكارهم حفظاً لروابط الكارات وصوناً لأموال الناس ، وهي كثيرة ومتنوّعة ، وأذكر منها ما تمكنت الوقوف عليه :

(1) - في أكثر الكارات يطرد الخائن والسّارق طرداً باتّاً فلم يعد أحد من أهل حرفته يقبله ، بل إذا أرادوا فيجرون عليه حرباً شديدةً لأجل إسقاطه من كل عمل .

(2) - إذا ثبت أن أحد معلّمي الكار نقص الصّاية عن الطول أو العرض المألوف ، فكان يحضرها شيخ الكار ويقصّها ويعلّقها في السّوق فيصير صاحبها عبرةً لمن اشتغل .

(3) - إذا أدخل أحد الغش بالكار فكان يرسل الشّيخ شاويشه فيقفل دكّانه ولا يعود بإمكانه فتحها إلاّ برضى الشّيخ وأهل الحرفة .

(4) - إذا أدخل أحد الصّيّاغ الغشّ والزّغل في مزيج معادنه ، فكان شيخ الصّاغة يقلب له السَّندان على قفاه فيبقى مربوطاً عن شغله إلى أن يحصل على رضاه .

(5) - إذا ترتب الحقّ على أحد معلّمي الكار بأنّه أخلّ بالرّوابط فيعطونه عرقاً أخضر دلالةً أنّهم يكلّفونه بعمل وليمة ، وهذا يعادل الجزاء النّقدي وهو المصطلح عليه أكثر من غيره من أنواع القصاص .

(6) - من جملة القصاصات التي كانت جاريةً قبلاً أنّهم كانوا يقصُّون للمذنب خصلة من شعر رأسه .

* * * * *

الفصل الثّامن

مسألة وختام

هذا حدّ ما وصل إليّ من أخبار أهل الحرف الدّمشقيّة وما يتعلّق بها ، جمعتُه بسرعة كليّة كيلا يفوتني وقت اجتماع محفلكم الموقّر ، ودوّنته بهذه الكُليمات واعداً أن أجمع ما سأقف عليه من هذا القبيل إتماماً للفائدة .

وقبل الفراغ من هذا الموضوع ، رأيت من المناسب أن أضع لذاتي ولكلّ من شاء الدخول في هذا المبحث من الذّوات الكرام الأعلام المحقّقين الذين سيطّلعون على أعمال المجمع الشرقي العلمي في ليدن حلّ المسألتين الآتيتين :

أولاً : هل أن لهذا الانتظام في تراتيب الحرف في دمشق رباط تاريخيٌّ يربطها بالماسونيّة منذ القديم ؟ وإذا كان ذلك كذلك فالمراد تعيين الوقت والظّرف الذي حدث فيه الأمر المذكور .

ثانياً : إذا كان لا يوجد هكذا ارتباط فلماذا روعي في الحرف نفس الترتيب تقريباً الجاري في الماسونيّة ؟ هل أنّ هذا مجرّد صدفة أو أنّ ترتيب الماسونيّة كان منشأه في هذه الدّيار ؟ أرجو الجواب على ذلك [1] .

* * * * *

(١) سبق أن شرحنا سبب هذا التشابه في مقدمة هذه النبذة ، وأن لا علاقة لأنظمة طوائف الحرف البتّة بالماسونية . وعلى أي حال ، فهذا سيكون موضوع دراسة وافية لنا .

ولمّا كنت حديث النّشأة قليل المعرفة ، فأختم خطابي بطلب المعذرة وغضّ الطرف عمّا تجرّأت اليوم عليكم به ، وبدخولي إلى هذا المقام الجليل ، وولوجي بموضوع لم أجد لي به معيناً في كتب السّالفين ولا دليلاً إلاّ ما تناقلته الألسنة من تقاليد الأقدمين ، فلا تحسبوه مني هوجاً إن رأيتم خللاً بالتعبير أو إخلالاً من التقصير ، فإنّ العصمة لله وحده - وهو الحكيم الخبير .

عن دمشق في 12/ آب / 1882م

إلياس عبده قدسي

* * * * *